

تفسير ابن كثير

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ^ق وَاتَّخَذَ
اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا

ثم قال تعالى : (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله) أخلص العمل لربه ، عز وجل ،
فعمل إيمانا واحتسابا (وهو محسن) أي : اتبع في عمله ما شرعه الله له ، وما أرسل به
رسوله من الهدى ودين الحق ، وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما ، أي : يكون
خالصا صوابا ، والخالص أن يكون الله ، والصواب أن يكون متبعا للشرعة فيصح ظاهره
بالمتابعة ، وباطنه بالإخلاص ، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد . فمن فقد
الإخلاص كان منافقا ، وهم الذين يراؤون الناس ، ومن فقد المتابعة كان ضالا جاهلا .
ومتى جمعهما فهو عمل المؤمنين : (الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن
سيئاتهم [في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون]) [الأحقاف : 16] ؛
ولهذا قال تعالى : (واتبع ملة إبراهيم حنيفا) وهم محمد وأتباعه إلى يوم القيامة ، كما
قال تعالى : (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي [والذين آمنوا والله ولي

المؤمنين] ([آل عمران : 68] وقال تعالى : ([قل إنني هداي ربي إلى صراط مستقيم
دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين] ([الأنعام : 161] و (ثم أوحينا
إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) [النحل : 123] والحنيف : هو
المائل عن الشرك قصدا ، أي تاركاً له عن بصيرة ، ومقبل على الحق بكلية ، لا يصده
عنه صاد ، ولا يردده عنه راد . وقوله : (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) وهذا من باب الترغيب
في اتباعه ؛ لأنه إمام يقتدى به ، حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له ، فإنه انتهى
إلى درجة الخلقة التي هي أرفع مقامات المحبة ، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه ، كما
وصفه به في قوله : (وإبراهيم الذي وفى) [النجم : 37] قال كثيرون من السلف : أي
قام بجميع ما أمر به ووفى كل مقام من مقامات العبادة ، فكان لا يشغله أمر جليل عن
حقير ، ولا كبير عن صغير . وقال تعالى : (وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن] قال
إني جاعلك للناس إماماً [] الآية [البقرة : 124] . وقال تعالى : (إن إبراهيم كان أمة
قانتا لله حنيفاً ولم يك من المشركين [شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم .
وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين] ([النحل : 120 - 122] . وقال

البخاري : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا شعبة ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن سعيد بن جبير ، عن عمرو بن ميمون قال : إن معاذ لما قدم اليمن صلى الصبح بهم : فقراً : (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) فقال رجل من القوم : لقد قرت عين أم إبراهيم . وقد ذكر ابن جرير في تفسيره ، عن بعضهم أنه إنما سماه الله خليلاً من أجل أنه أصاب أهل ناحيته جذب ، فارتحل إلى خليل له من أهل الموصل - وقال بعضهم : من أهل مصر - ليمتار طعاماً لأهله من قبله ، فلم يصب عنده حاجته . فلما قرب من أهله مر بمفازة ذات رمل ، فقال : لو ملأت غرائري من هذا الرمل ، لئلا أغم أهلي برجوعي إليهم بغير ميرة ، وليظنوا أنني أتيتهم بما يحبون . ففعل ذلك ، فتحول ما في غرائره من الرمل دقيقاً ، فلما صار إلى منزله نام وقام أهله ففتحوا الغرائر ، فوجدوا دقيقاً فعجنوا وخبزوا منه فاستيقظ ، فسألهم عن الدقيق الذي منه خبزوا ، فقالوا : من الدقيق الذي جئت به من عند خليلك فقال : نعم ، هو من خليلي الله . فسماه الله بذلك خليلاً . وفي صحة هذا ووقوعه نظر ، وغايته أن يكون خبراً إسرائيلياً لا يصدق ولا يكذب ، وإنما سمي خليل الله لشدة محبة ربه ، عز وجل ، له ، لما قام له من الطاعة التي يحبها ويرضاها ؛ ولهذا ثبت في الصحيحين

، من حديث أبي سعيد الخدري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خطبهم في آخر
خطبة خطبها قال : " أما بعد ، أيها الناس ، فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً
لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله " . وجاء من طريق جندب
بن عبد الله البجلي ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن مسعود ، عن النبي
صلى الله عليه وسلم : " إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً " . وقال أبو بكر
بن مردويه : حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم ، حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد ،
حدثنا إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني بمكة ، حدثنا عبيد الله الحنفي ، حدثنا زمعة بن
صالح ، عن سلمة بن وهرام ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : جلس ناس من أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه ، فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون ،
فسمع حديثهم ، وإذا بعضهم يقول : عجباً إن الله اتخذ من خلقه خليلاً لإبراهيم خليله !
وقال آخر : ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليماً ! وقال آخر : فعيسى روح الله
وكلمته ! وقال آخر : آدم اصطفاه الله ! فخرج عليهم فسلم وقال : " قد سمعت كلامكم
وتعجبكم أن إبراهيم خليل الله ، وهو كذلك ، وموسى كلمه ، وعيسى روحه وكلمته ،

وآدم اصطفاه الله ، وهو كذلك ألا وإني حبيب الله ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم
القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافع ، وأول مشفع ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلق الجنة ،
يفتح الله فيدخلنيها ومعني فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم
القيامة ولا فخر " . وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها
. وقال قتادة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال : أتعجبون من أن تكون الخلعة لإبراهيم
، والكلام لموسى ، والرؤية لمحمد ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . رواه الحاكم
في مستدركه وقال : صحيح على شرط البخاري ، ولم يخرجاه . وكذا روي عن أنس
بن مالك ، وغير واحد من الصحابة والتابعين ، والأئمة من السلف والخلف . وقال ابن أبي
حاتم : حدثنا يحيى بن عبدك القزويني ، حدثنا محمد - يعني ابن سعيد بن سابق - حدثنا
عمرو - يعني ابن أبي قيس - عن عاصم ، عن أبي راشد ، عن عبيد بن عمير قال : كان
إبراهيم عليه السلام يضيف الناس ، فخرج يوما يلتمس إنسانا يضيفه ، فلم يجد أحدا
يضيفه ، فرجع إلى داره فوجد فيها رجلا قائما ، فقال : يا عبد الله ، ما أدخلك داري
بغير إذني ؟ قال : دخلتها بإذن ربها . قال : ومن أنت ؟ قال : أنا ملك الموت ، أرسلني

ربي إلى عبد من عباده أبشره أن الله قد اتخذته خليلا . قال : من هو ؟ فوالله إن أخبرتني به ثم كان بأقصى البلاد لآتينه ثم لا أبرح له جارا حتى يفرق بيننا الموت . قال : ذلك العبد أنت . قال : أنا ؟ قال : نعم . قال : فيم اتخذني الله خليلا ؟ قال : إنك تعطي الناس ولا تسألهم . وحدثنا أبي ، حدثنا محمود بن خالد السلمي ، حدثنا الوليد ، عن إسحاق بن يسار قال : لما اتخذ الله إبراهيم خليلا ألقى في قلبه الوجل ، حتى إن كان خفقان قلبه ليسمع من بعيد كما يسمع خفقان الطير في الهواء . وهكذا جاء في صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه كان يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء .